

أمتنا بين قرنين^(*) ل.د. يوسف القرضاوي

عرض وتحليل :

أ.د. سعيد إسماعيل علي



اضطرت ظروف المواجهات الساخنة بين ثورة يوليو والجماعة أن يهاجر من مصر ويستقر في قطر، لكنه وصل ما انقطع بينه وبين وطنه الأول مصر بعد ذلك ، وإن كانت الظروف لا تتيح له فرصة الالتقاء المباشر بالجماهير المصرية في ندوات أو مؤتمرات عامة ، وأصبح اللقاء الآن مع هذه الجماهير لا يتم إلا من خلال القنوات الفضائية العربية والتي يكاد يكون ضيفاً مستمراً في كثير منها، وخاصة بطبيعة الحال قناة الجزيرة القطرية .

أول مرة رأيت فيها الدكتور يوسف القرضاوي وجهاً لوجه كانت في أغسطس عام ١٩٨٦ في ملتقى الفكر الإسلامي الذي كان يعقد كل عام في الجزائر ، والذي كان حاشداً يحضره كثيرون من ممثلي الفكر الإسلامي من شتى أنحاء العالم ويفتح للجمهور العام، وإن كنت بطبيعة الحال، مثلي مثل كثيرين، قد قابلت الرجل كثيراً على صفحات كتبه الكثيرة . وكما هو معروف فالقرضاوي من أنجب تلاميذ حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين.

(*) صدر عن دار الشروق ، سنة ٢٠٠٠ ، في ٢٧٠ صفحة.

كان أبرز ما يشدني إلى قراءة القرضاوي هو هذه القدرة الفذة على اقتحام مختلف المشكلات والقضايا التي تفرضها التغيرات المتواصلة، وخاصة في عصرنا الحالي، ليخضعها لمحك التفكير والاجتهاد، ويخرج لنا بآراء تلتزم بالأصول الإسلامية، ولا تخاصم العصر بأسلوب يتسم بالوضوح والسلاسة والبساطة، وفي نفس الوقت نلمس فيه العمق والمنطق والأفق الواسع، ولكي ندرك أهمية ذلك دعني أذكر لك أنه في صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان الماضي، وقف خطيب المسجد الذي كنت أصلي فيه يتحدث عن زكاة الفطر، فذكر أن على المسلم أن يخرج «صاعاً» من القمح! وظللت أنتظر أن يترجم الرجل هذا إلى لغة يفهمها عموم الناس، وبما يتفق مع المتاح لهم حالياً، أي القيمة النقدية، لكنه لم يفعل، وظل يكرر أهمية التقيد بهذه القيمة التي ذكرها، ومثل هذا الأسلوب في مخاطبة الناس اليوم يعزل بين الأحكام الفقهية وحركة الحياة.

والدكتور القرضاوي على الرغم من أنه «داعية» لكن لا يغلب على أسلوبه النزعة الانفعالية والاعتماد على إثارة

العواطف وحدها، بل ينزع إلى «العقلانية» في المناقشة والتحليل، أدواته النصوص الشرعية، والأدلة المنطقية، والمعطيات العصرية، والنزعة التي يشع منها التسامح، وتبرز فيها المرونة بغير ترخص ولا تهاون، فهو بالفعل «فقيه العصر» ولو كان لنا أن ننصب للاجتهاد الفقهي أميراً مثلما أمرنا من قبل أحمد شوقي على الشعر العربي، لاستحق الرجل أن يكون بالفعل هو أمير الاجتهاد الفقهي بغير منافس.

وقد شاهدت في هذا الملتقى المشار إليه للقرضاوي موقفاً عملياً يعكس موقفه الفكري المعروف به، فمن حسن حظي أن الجلسة التي عرضت فيها بحثي عن الاتجاه الصوفي في الفكر التربوي الإسلامي، كان فيها كذلك المفكر الفرنسي المعروف «روجيه جارودي». لم أفهم بطبيعة الحال ماذا قال جارودي، حيث لا أعرف الفرنسية، لكن الكم الأكبر من الجمهور الجزائري كان على العكس بطبيعة الحال، ولما حان وقت المناقشة، إذا بوجهات نظر متعددة تهاجم جارودي بشدة وعنف، لكن القرضاوي وقف ليعتب على هذا الأسلوب الحاد، وقال ما معناه: إن

الرجل حديث عهد بالإسلام (في ذلك الوقت) ، بعد عشرات السنين التي تشرب فيها الحضارة الغربية، وخاصة في وجهها الماركسي، ولا ينبغي أن نطلب منه أن يحدّثنا كما يحدّثنا مفكر عاش سنوات عمره في رحم الثقافة الإسلامية، وبالتالي فلا بد أن نتعامل مع جارودي بقدر كبير من التسامح واللين وسعة الصدر . ثم يعلن القرضاوي أن جارودي يفضل الكثيرين منا، فنحن جميعاً مسلمون بالميلاد ، واستمرت مسيرتنا على طريق الإسلام، لكن جارودي مسلم بالاختيار العقلي بعد عشرات السنين التي اقتات فيها على فكر مضاد تماماً ؛ ولذا فأجره عند الله لا بد أن يكون كبيراً . وبعد هذا الكلمات الحكيمة هدأت العاصفة، وملائي مشاعر بالارتياح والغبطة بعدما كنت قد شعرت بخوف شديد أثناء الهجوم عليه أن يتراجع الرجل عن إسلامه عندما رأى هذه الصورة من ضيق الصدر .

وكانت آخر مرة قابلت فيها شيخنا في الصيف الماضي (٢٠٠٠) في منزله بالقاهرة مع كوكبة من المهمومين بالفكر الإسلامي ، وبين المرة الأولى والأخيرة ، كانت هناك مناسبات أخرى

قليلة التقيت فيها مع الرجل، بعضها في الدوحة، وبعضها الآخر في القاهرة، وفي كل مرة يزداد فيها يقيني بأننا بالفعل أمام إمام المجتهدين في القرن العشرين، بعدما كان الشيخ محمد عبده هو إمام المجتهدين في القرن التاسع عشر، مصداقاً للمقولة النبوية الشريفة بأن الله يبعث على رأس كل مائة عام فقيهاً وعالمًا يحدد للأمة فكرها الديني .

وفقيهاً على درجة من النشاط يحسد عليها حقاً ، فهو بجانب أنه أصلاً أستاذ جامعي يمارس مهام الأستاذية ، وعضويته في العديد من المجالس الفقهية التي تتطلب عملاً وبحثاً واجتماعاً وزيارات ، وكذلك كونه مستشاراً للجوانب الفقهية في معاملات بعض البنوك المالية، وحضوره المستمر للعديد من الندوات والمؤتمرات واللقاءات التلفزيونية والإذاعية في مختلف أنحاء العالم، بجانب هذا كله غزير الإنتاج العلمي، حيث ألف حتى الآن ما قد يصل إلى المائة كتاب تتجلى فيها روحه السمحة، واشتباكه مع هموم المسلمين المعاصرة ، وتنوع اهتماماته إلى درجة مدهشة حقاً، ولعل تأملاً سريعاً لعناوين بعض كتبه تنطبق بهذا التوجه العام

لاجهاد القرضاي نحو التيسير والمرونة
وسعة الصدر :

- ففي الفقه وأصوله ، نجد : تيسير
الفقه للمسلم المعاصر - عوامل السعة
والمرونة في الشريعة الإسلامية .

- وفي الاقتصاد ، نجد : دور القيم
والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي -
مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .

- وفي علوم القرآن والسنة ، نجد
العقل والعلم في القرآن الكريم - السنة
النبوية مصدرًا للمعرفة والحضارة .

- وفي الحركة الإسلامية ، نجد فقه
الأولويات - من أجل صحة راشدة
تحدد الدين وتنهض بالدين .

- وفي الإسلاميات العامة ، نجد :
الإسلام حضارة الغد - قضايا معاصرة
على بساط البحث .

- وفي وسائل ترشيد الصحوه ، نجد :
الإسلام والفن - الدين في عصر العلم -
ظاهرة الغلو في التكفير ، بل إن له أعمالاً
إبداعية أدبية ، فله - مثلاً - ديوانان
شعريان ، ومسرحيتان !

والكتاب الذي بين أيدينا فرغ منه
القرضاوي في ديسمبر عام ١٩٩٩
ليجيب عن سؤال هام هو : ماذا يكون
دور المسلمين في الألفية الثالثة؟ أيكون

لهم مكان تحت الشمس أم يظلون في
ذيل القافلة كما هو اليوم ؟ يستهلكون
ولا ينتجون ، ويستوردون ولا يبدعون ،
ويستقبلون ولا يرسلون ، ويقلدون ولا
يحدثون ؟

وعلى الرغم من كل مظاهر التخلف
القائمة ، والضعف المزري ، والذيلية
الحضارية ، فإن قضيئنا لا يقع في جب
التشاؤم والإحباط ، وإنما يتفاعل بمستقبل
الأمة الإسلامية ، لا تفاؤلاً مبنياً على
بجرد الأمانى والأحلام ، وإنما لأن هناك
من أسباب القوة الكامنة ، ما يمكن أن
يقفز بهذه الأمة إلى المواقع الأولى على
طريق الحضارة المتقدمة ، لكن هذه
القوى الكامنة تحتاج إلى عملية استنهاض
كبرى ، وتضحيات جسيمة ، ومثابرة
على «الكد» و «الكدح» ، مصداقاً
لقوله سبحانه وتعالى في سورة آل
عمران : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا
تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمَسُّكُمْ
فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ
وَلَئِكَ الْأَيَّامُ نَذَاوِلُهَا يَبْنِي النَّاسُ

(١٤٠) ﴿

ونقطة انطلاق أي عمل فكري يرنو إلى المستقبل هي الخبرة المتراكمة من الماضي القريب، واستقراء للحاضر المعيش، ومن هنا ينطلق القرضاوي من «إنجازات البشرية وإخفاقاتها في القرن العشرين»، فهذا القرن هو حقاً :
قرن الإنجازات العلمية الكبرى.

قرن الحقوق والواجبات .

قرن انهيار القيم .

قرن الحروب والدماء .

فكأننا إذن أمام رباعية إنجاز نصفها

إيجابي ونصفها الآخر سلبى .

ولنتوقف وقفة قصيرة أمام المعلم الثالث بصفة خاصة، لا لأن كاتب هذه السطور هو أستاذ تربية تتجه بوصلة اختياراته غالباً نحو الجانب السلوكي الأخلاقي، ولكن بدافع إيمان بأن منظومة القيم هي في الحقيقة «المادة الأسمتية» التي «تلحم» بين عناصر البناء الحضاري، أو قل هي ذلك الخيط الذي يربط حبات المسبحة، إن صح التشبيهان.

ومن المؤسف حقاً أن عدداً من الكتاب الإسلاميين عندما يتناولون الحضارة الغربية يعيون نقدية نجدهم

يحصرون القيم الأخلاقية في نطاق واحد ضيق، يدور في غالب الأحوال حول «الجنس»، ولما كان الغربيون يمارسون هذه المسألة بقدر كبير من الحرية، في الوقت التي يحيطها فيه المسلمون بأكثر قدر من التحريم، يجيء الحكم على الحضارة الغربية بأنها وإن كانت قد بلغت الذروة في المنجزات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية، لكنها حضارة منحطة أخلاقياً! ثم نخدر أنفسنا بمقولة أننا على العكس منهم، متميزون أخلاقياً، وما زالت حياتنا الفردية والاجتماعية تقوم على منظومة من القيم الأخلاقية التي تعلو من شأن الفضيلة، على الرغم من أننا متخلفون سياسياً واقتصادياً وعلمياً وتكنولوجياً . وخطورة هذا أنه يمدنا بشعور زائف بالتميز، مما يقعدنا عن بذل المزيد من الجهد لتجاوز الفجوة الحضارية.

ويغفل هؤلاء الكتاب عادة عن أن الأخلاق أوسع مجالاً من المسألة الجنسية، فهي تتضمن كذلك مجموعة من القيم التي تحكم العمل الإنساني في مختلف مجالاته، وبالتالي فإن الأمة الأخلاقية في الحضارة الغربية تنتج من فصلها وعزلها الأخلاق عن مجالات العلم والسياسة

الصارخة في التعامل معنا ومع إسرائيل، بل نجدها كذلك في التعامل مع دول عربية يوصف بعضها بأنه إرهابي، ويغض الطرف عن أخرى تسحق فيها حقوق الإنسان، لكنها صديقة للولايات المتحدة، لأن المسألة هي ما يعبر عنه أهل السياسة بـ «المصلحة» .

وبسبب فصل الأخلاق عن الاقتصاد وجدنا كيف يستخدم الاقتصاد لسحق المنافسين، وطردهم من الساحة بأية وسيلة، وكذلك للكسب والإثراء ولو من عرق الكادحين ودماء المستضعفين ودموع المسحوقين ، تطبيقاً لفلسفة ميكافلي الشهيرة القائلة بأن الغاية تبرر الوسيلة .

وكذلك استخدمت السياسة كل الوسائل لقهر الخصوم والتغلب على المنافسين بالكذب والخداع والمكر والغش، ما دامت الغاية تبرر الوسيلة، والأخلاق شيء، والسياسة شيء آخر، وكان بينهما خصومة، أو قل: إن الأخلاق عندما تدخل السياسة ربما تكون سبباً في هزيمتها، على اعتبار أن الأخلاق هي ادعاءات للضعفاء حتى يحموا أنفسهم في ساحات السجال مع الأقوياء!

والاقتصاد، بحيث لا يجدون أمامهم إلا تلك القيمة المركزية التي سبق أن بشر بها فلاسفة أخلاق غربيين أصحاب مذهب «المنفعة» ، وعلى رأسهم «جيرمي بنتام» (١٧٤٨ - ١٨٣٢) ، جون ستوررات مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣)، فمعيار القيم في هذا المذهب هو مقدار ما تؤدي إليه من منفعة، بل إن الفلسفة الأمريكية الشهيرة «البراغماتية» عرفت عند كثيرين بأنها صورة أخرى من مذهب المنفعة ، حيث تركز هذه الفلسفة على مبدأ «الفائدة» ، إلى الدرجة التي دفعت أحد زعمائها «وليم جيمس» إلى أن يقول بمبدأ «القيمة الفورية» Cash Value ، وكأن الفكرة مثلها مثل «الشيك» مقبول الدفع، قيمته إنما يجدها ما يتم دفعه بناء عليه!

ولعل هذا ما قد يفسر ما أصبح معروفاً بـ «ازدواجية المعايير» التي نقابلها دائماً في السلوك السياسي للدول الغربية الكبرى، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، بحيث يصبح الفعل في دولة جرمًا وإرهابًا ، ويصبح في نفس الوقت في دولة أخرى دفاعًا شرعياً عن النفس، أو تدعيمًا للديمقراطية وحماية لها، ولا نجد هذا في تلك التفرقة

وانظر إلى التعامل الغربي مع قضية المرأة ، فهو يملأ الدنيا ضجيجاً عن حقوقها وتحريرها، بينما تشير معطيات الواقع الحضاري أن المرأة قد «تشيأت» أو «تسلعت» - من سلعة - ، وهذا التشيؤ والتسلع هو إهدار لكرامتها وبخس لقيمتها ، فلقد تحولت المرأة في الغرب إلى أداة للمتعة، والإثارة الجنسية؛ ولهذا قامت فلسفة الأزياء النسائية في الغرب على إبراز المحاسن، وتجسيد المفاتن، وإظهار المثيرات، وليس على الستر والحشمة التي اعتبروها اعتقالاتها، بينما هي صون لها وحفاظ عليها من تطلعات الآخرين الذين ينظرون إليها بعيون ذئب يتطلع إلى جسد يريد أن يلتهمه ، وأصبحت المرأة أهم عنصر في الإعلانات، حتى فيما يتعلق بالرجال، وما يحتاج إليه الرجال، تعلن عنه امرأة! وإذا كان ما سبق يعبر عن بعض إنجازات الحضارة العالمية، فقد رصد شيخنا كذلك عدداً من الإنجازات الهامة لأمتنا ، ومثالها:

- التحرر من الاستعمار .

- انتشار التعليم .

- ظهور حركات الإحياء الإسلامي.

- مقاومة التغريب والغزو الفكري.

- انطلاق الصحوة الإسلامية .

لكن مما يلفت نظرنا أن التحرر من الاستعمار ليس كاملاً حتى الآن، وآية ذلك أنه في الوقت الذي أتت فيه الفرصة للدول التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفيتي أن تتحرر، وكذلك بعض الجمهوريات السوفيتية، إلا أن مصلحة كل من الروس والغرب تلاقت على ضرورة الإبقاء على الجمهوريات الإسلامية بصفة خاصة ، مثل طاجيكستان، وكازاخستان، وأوزبكستان تحت سيطرة قوى شيوعية، خوفاً من أن تتحول مثل هذه الجمهوريات إلى عناصر قوة تضاف إلى الرصيد الإسلامي.

كذلك لا نستطيع أن نفعل عن الاستعمار الصهيوني فهو أخطر أشكال الاستعمار، بما أصبح يمثل من قوة تستنزف الكثير من طاقة الأمة العربية عبر ما يزيد على الخمسين عاماً .

وليس خافياً على أحد أن العالم قد أصبح يعرف أشكالا جديدة من الاستعمار لا تتمثل في جنود وضباط ومعدات عسكرية أجنبية تحتل أرضاً أخرى، فهناك بعض المنظمات الدولية التي تخضع لإرادتها لقوى الهيمنة الكبرى،

أجل مقاومة «الفرنسة» والتأكيد على عروبة وإسلامية الجزائر، حتى أننى لأذكر، في اجتماع الملتقى المشار إليه بالجزائر عام ١٩٨٦ أن أحد زعماء الثورة الجزائرية «مولود قاسم» قال:

إنهم وهم صغار، كانوا يستيقظون عند أذان الفجر ويذهبون إلى المسجد ليتعلموا القرآن، إلى أن تأتي الساعة الثامنة صباحاً فيذهبوا إلى المدرسة التي كان التعليم فيها كله باللغة الفرنسية، ولعل هذا يشير إلى أحد العوامل المهمة التي تفسر لماذا ظل شعب الجزائر مؤمناً بالعروبة والإسلام على الرغم من أن سياسة «الفرنسة» قد مورست عليه ما يقرب من قرن وربع قرن .

وعلى الرغم مما شهدته تركيا على يد أتاتورك ، فقد ظهرت «حركة النور» على يد العلامة بدیع الدین سعید النورسی، وتواصل تيار هذه الحركة حتى تبدى في حزب الرفاه، الذي تم حظره، ثم في حزب الفضيلة، الذي اعتبر خليفة للرفاه وهكذا في الكثير من الأقطار العربية والإسلامية .

ومن أبرز مظاهر الصحوة الإسلامية التي أشار إليها القرضاوي تحول عدد من كبار المفكرين الذين كانوا في خانة

وهناك الشركات العملاقة متعددة الجنسية ، وهناك المعونات والقروض ، وغير هذا وذاك، مما يجعل إرادة بعض الدول مرهونة بما تراه قوى الهيمنة الكبرى .

وفي مجال حركات الإحياء الإسلامي فأكبرها بطبيعة الحال جماعة الإخوان المسلمين التي تأسست عام ١٩٢٨ على يد حسن البنا في مصر، والجماعة الإسلامية في الهند على يد أبي الأعلى المودودي . وهناك الكثير من أوجه التشابه بين الجماعتين، إلا أن هناك أيضاً فروقاً لا يخطئها مراقب، فبينما نشأت جماعة الإخوان بين صفوف عمال وحرفيين وصغار مهنيين مما أكسبها طابعاً شعبياً أتاح لها فرصة الانتشار السريع والتأثير الواسع، فاكسبت قوة كبيرة، فإن جماعة المودودي انحصرت فترة من تاريخها في دائرة الخاصة الفكرية، وانعكس هذا على أسلوب كل من الجماعتين، فبينما اعتمد الإخوان على «التربية» اعتمدت جماعة المودودي على الجانب الفكري من حيث التنظيم .

وشهدت الجزائر أيضاً «جمعية علماء الجزائر» بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس والذي ركز على بناء المدارس من

الماركسية، أو التغريب، إلى التوجه الإسلامي، مثل الدكتور منصور فهمي، أستاذ الفلسفة، وإسماعيل مظهر الذي كان قد كتب من قبل: لماذا أنا ملحد؟ ومصطفى محمود الذي كان أول كتاب له عن «الله والإنسان» ينطق بالحداد واضح، وخالد محمد خالد الذي أعلن في كتابه «الدولة في الإسلام» تراجعاً عن بعض آرائه الأساسية في كتابه الأول «من هنا نبدأ»، والمستشار طارق البشري، ود. محمد عمارة، وعادل حسين.

ومما يثير الدهشة حقاً ما ينقله شيخنا عن د. عمارة من تصريح الشيخ على عبد الرازق صاحب الكتاب الشهير «الإسلام وأصول الحكم» تعليقاً على عبارة له في هذا الكتاب يقول فيها «الإسلام رسالة روحية ولا صلة لها بالدولة أو السياسة»، إنها عبارة ألقاها الشيطان على لسانه. وفضلاً عن ذلك، فقد كان الشيخ على في أواخر حياته يصلي وراء الشيخ الغزالي في الأزهر، ولما دار حديث بين الشيخين حول الكتاب، قال الشيخ على: تلك مرحلة انتهت!

وأضيف إلى ذلك أنني سمعت بأذني

المرحوم الدكتور الزيات يقول أثناء تكريمه في مهرجان أعلام دمياط منذ عدة سنوات، وسط حلقة ضيقة من المستمعين، أن الدكتور طه حسين عندما لفظ أنفاسه الأخيرة، وجد بجوار سريره مؤشر المذياع على محطة القرآن الكريم!

وهناك الدكتور محمد حسين هيكل، كما عبر صراحة في مقدمة كتابه في منزل الوحي. ومع ذلك فيمكن رصد عدد من «الإخفاقات» التي واجهتها الأمة في القرن العشرين، يرصد منها القرضاوي:

- ضياع الخلافة النازمة لعقد الأمة.
- هزيمتنا أمام المشروع الصهيوني.
- إخفاقنا في مسيرة التقدم والتنمية.
- إخفاقنا في التحرر من التبعية للغرب.
- إخفاقنا في مجال الشورى والحريات.
- إخفاقنا في توحيد الأمة.
- إخفاقنا في تحقيق العدالة الاجتماعية.
- إخفاقنا في مجال قضايا المرأة.
- إخفاقنا في التربية الإيمانية والأخلاقية للأمة.

وهي قائمة مفزعة حقًا يمكن أن تصيب الإنسان بالإحباط ، ومع ذلك فمن الصعب أن نأخذ هذا على أنه حكم «بالفشل» في كل مجال من هذه المجالات ، فما زالت المواجهة مستمرة ، مثلاً مع المشروع الصهيوني ، ولا نستطيع أن ننسى بطبيعة الحال كيف انتصرنا عليه في أكتوبر ١٩٧٣ ، وكيف أن الانتفاضة الأولى ١٩٨٧ ، والانتفاضة الثانية التي أطلق عليها انتفاضة الأقصى ، أعلنتنا بكل وضوح أن الإرادة العربية الإسلامية لم تنكسر نهائياً . وإذا كانت هناك صور من الإخفاق في التنمية والعدالة الاجتماعية والتربية والحريات ، فإن مما لا شك فيه أن هناك «نجاحات» وخطوات تقدمت بنا إلى مواقع أفضل مما كان عليه الأمر من قبل ، وعلى سبيل المثال ، فعلى الرغم من الحرية المنقوصة القائمة ، واستمرار ممارسات الاستبداد ، لكن الوضع على أية حال أفضل كثيراً مما كان عليه أمرنا من قرنين مضياً وربما ثلاثة أو أكثر .

لكن مظاهر التبعية ، مثلاً ، ما زالت قائمة ولم تحف قبضتها الحقيقية ، على الرغم من كل الأشكال الظاهرة التي توحى بأن الاستقلال يظل للجميع . ومن

المثير للضحك حقاً - وشر البلية ما يضحك - أن أحد الدعاة ممن ينتسب إلى جماعة دينية معاصرة ، تهتم بالجوانب الروحية والعبادية فحسب قال يوماً في خطبة أو درس له : الحمد لله الذي سخر لنا الإفرنج ليقدموا لنا منجزات العلم والتكنولوجيا ، لتفرغ نحن لعبادة الله تعالى !!

أما التحديات التي تواجهها الأمة فهي كثيرة ، لعل من أبرزها تحدى الهوية ، فمن أكبر الخطايا التي يمكن أن تقع أمة في جها أن تصيها حيرة فلا تدري من هي وفي أى اتجاه تسير؟ ويتخط أبناؤها بين هذا التوجه وذاك ، وهو الأمر الذي تعاني منه كثير من الشعوب الإسلامية في عصرنا الحاضر ، بينما لن تستطيع هذه الشعوب أن تجد لها مكاناً تحت الشمس ما لم تهتدى وتقتنع بهويتها التي هي جوهر حياتها ألا وهي الهوية الإسلامية .

وعندما نعلن أننا مسلمون ، فإن هذا لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن يعنى تناقضاً بين حقيقة أخرى وهي أننا ، في هذه المنطقة ، عرب : «العربية لسان الإسلام ، والعروبة وعاءه ، والعرب الأولون حملة رسالته ، وكتاب الإسلام عربي ، ورسول الإسلام عربي ، وأرض

العرب هي منطلق الإسلام، وفيها مقدساته ومساجده الثلاثة (الحرم المكي، والحرم النبوي، والمسجد الأقصى) لا تشد الرحال إلا إليها»، ومن هنا فينبغي أن يكف هؤلاء الإسلاميون الذين ينظرون إلى العروبة بشك وريبة وكأنها خطر على الإسلام، كما ينبغي على هؤلاء العروبيين الذين ينظرون إلى الإسلامية باعتبارها تعصباً وخصماً لغير المسلمين، ففي ظل الهوية الإسلامية «المسلم يؤمن بالإسلام عقيدة وشرعة، والمسيحي يؤمن بالإسلام ثقافة وحضارة».

ويتوقف شيخنا طويلاً أمام ثلاث تحديات بصفة خاصة، أولها: التحدى الصهيوني، ويرى أن «التطبيع» هو في الحقيقة سعى إلى «التطويع» أو «التركييع»؛ ذلك أنه محاولة لنزع مخالب الأمة حتى إذا تقدم إليها من يريد افتراسها لم تقو على المقاومة؛ وذلك لأن التعامل الاقتصادي والثقافي بين طرفين أحدهما أقوى من الآخر بدرجات عالية، تكون نتيجته الختمية مزيداً من القوة للأقوى ومزيداً من الضعف للضعيف.

وهنا لا بد للمرء أن يقف موقف تحية

وتقدير حقاً لموقف الشعب المصري من قضية التطبيع، فلذا كانت «الدولة» قد اقتضت ظروفها أن توقع مع العدو الصهيوني اتفاقية «سلام»، بل وأن توقع معه اتفاقيات تطبيع، إلا أنه على المستوى الشعبي فإن الوعي على درجة من الاستيقاظ بحيث لم ينظر إلى إسرائيل كدولة عادية، يمكن أن تنتهي معها حالة الحرب لتقوم علاقات سلام وتطبيع مثلما أصبح الأمر مثلاً بيننا وبين فرنسا وبريطانيا بعد العدوان الثلاثي، ولكن إسرائيل سرطان استيطاني يتسرب إلى مختلف خلايا الجسم العربي ليصيبها بهذا الداء الخبيث، ومن هنا كان الرفض الشعبي الواضح، وخاصة على مستوى النخبة الفكرية، والتي وجدت لها سنداً قوياً بين الجماهير، وإن لم يحدث مثل هذا عند بعض رجال الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال.

ولعل مما يمكن أن تتوصل به الأمة لمقاومة التطبيع:

- الموارث الثقافية للأمة هي السد المنيع.
- إقامة ثقافتنا على منطق المواجهة لا الانغلاق.

- إشاعة الثقافة التي تقوم على

الوحدة مع التنوع .

- ثقافة تشجع التفاعل والتجميع
وتواجه محاولات التفريق .

- التصدي بقوة ووعي لمحاولات
الاختراق الثقافي .

- إقامة الجسور بين ينابيع الثقافة
العربية الإسلامية وبين الجماهير .

وأمام تحدى التجزئة لابد أن نتوقف
أمام هذه الصور التي تجعل من السنة
والشيعة وكأنهما أصحاب دينين
متباينين، مع أن كلاهما يؤمن بالآله
الواحد ربًّا ، وبمحمد ﷺ رسولاً .
وهناك محاولات بذلت، وما زالت،
للتقريب بين المذاهب، كما رأينا في تلك
الندوة التي دعت إليها المنظمة الإسلامية
للثقافة والتربية والعلوم سنة ١٩٩٥،
والتي عقدت في الرباط وأسفرت عن
توصيات جيدة شارك في صياغتها علماء
من أهل السنة والشيعة معاً .

وزار القرضاوي إيران في ربيع عام
١٩٩٨ بدعوة من مجمع التقريب بين
المذاهب، برئاسة آية الله الشيخ واعظ
زاده الخرساني، وتأيد آية الله الشيخ
محمد التسخيري، ولقى عددًا كبيرًا من
العلماء في طهران وقم ومشهد
وأصفهان، كما لقي رئيس الجمهورية

السيد محمد خاتمي، كما لقي رئيس
مجلس تشخيص مصلحة النظام في ذلك
الوقت حجة الإسلام علي أكبر
رفسنجاني .

ووجد شيخنا عند الجميع رغبة في
التفاهم والتعاون والتلاقي، وذكر لهم
بصراحة الأشياء التي تحول دون التقريب
الحقيقي، وهو : سب الصحابة ،
والموقف من أهل السنة داخل إيران،
ومحاولة نشر التشيع في بلاد أهل السنة .
وقد تجاوب مع شيخنا الفضلاء من
علماء الشيعة الإيرانيين، وأكدوا معه أنه
لا مبرر لسب الصحابة، وبخاصة الكبار
منهم مثل أبي بكر وعمر وعثمان
وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم،
كما أكدوا أنهم في كتبهم الدراسية
ذكروا مواقف تحتذى لأبي بكر وعمر
باعتبارها نماذج إسلامية للبطولة
والهداية، وهذه خطوة مهمة على الطريق
يؤمل أن تتبعها خطوات أخرى على
نفس الطريق .

كذلك فلا صحة لما يشاع بأن كل
الشيعة يؤمنون بتحريف القرآن، والذي
لا شك فيه أن الجميع يؤمنون أن ما بين
دفتي المصحف هو كلام الله لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن

المصحف الذي يطبع في إيران هو نفس المصحف الذي يطبع في المدينة المنورة وفي القاهرة، وسائر بلاد المسلمين، وأنه هو الذي يحفظه أبناؤهم في المدارس، ويتلى عندهم في الإذاعة والتلفاز، وأنه هو الذي يحتاج به علماء العقيدة على عقائدهم، ويستدل به علماء الفقه والشرعية على الأحكام.

وعلى طريق التجميع بين التيارين القومي والإسلامي استطاع العقلاء من الفريقين أن ينجحوا في عقد عدة مؤتمرات الهدف منها توحيد الجهود، وكان من وراء ذلك المؤتمر القومي الإسلامي الذي انعقد في بيروت في أكتوبر ١٩٩٤، واعتبر المؤتمر التأسيسي وأقر صيغة التلاقي، كما اعتبر مؤسسة دائمة تلتقي كل عامين، والتقى بعد ذلك مرتين، مرة في عام ١٩٩٧، والأخيرة كانت في يناير ٢٠٠٠.

وعندما اجتمع الفريقان، تبين لهم أن ما يجمعهم أكثر مما يفرقهم، وشارك القرضاوي في اللقاءين الأول والثالث، وشهد أن هذا التقارب قد أدى إلى خير كثير، فقد وجد الذين يتحدثون من القوميين في جلسات المؤتمر يبدأون حديثهم بـ (بسم الله) والصلاة والسلام

على رسول الله، بل لقد سمع بعض الأخوة المسيحيين مثل الأب أنطوان ضو يثني في كلمته على الموقع الشهير على الإنترنت وهو Islam On Line، وعلى ما يقدمه من معرفة وخدمات.

كما رأى القرضاوي الدكتور جورج جبور من سوريا يثني على برنامج شيخنا في قناة الجزيرة المعروف (الشرعية والحياة)، ويقول: إنه يتابعه باستمرار، وهو خير ما يقدم في عصرنا للتعرف على الإسلام، وخصوصاً لغير المسلمين.

وقرأ شيخنا الأوراق المقدمة من القوميين، فلم يجد فيها ما ينكره الإسلام، إلا ما ندر مما قد يقع من الإسلاميين الخلل أنفسهم، بل رأى عدداً منها يفيض إيماناً وحماساً لثقافة الإسلام، وأمة الإسلام.

وإذا كانت هناك جماعات وفرادى داخل الساحة الإسلامية تختلف وتفترق، فلا يرى شيخنا أن يزعجنا هذا، فالاختلاف سنة من سنن الله في خلقه، وإنما يكون الفزع والانزعاج عندما يتصور فريق أنه وحده الذي قد أدرك الحق كاملاً، وأن غيره بالتالي مخطئ، ويمكن أن يذهب أكثر من ذلك فيحيط

ما وصل إليه بقدر كبير من «العصمة»، وهذا ما لم يفعله من قبل كبار الفقهاء المعروفين، فقد كان أبو حنيفة يقول: «فقهنا هذا رأى، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه»، ووقف الإمام مالك وهو يعلم تلاميذه في مسجد الرسول ﷺ مشيراً إلى قبره: «كل أحد يؤخذ منه ويرد إلا صاحب القبر». وهناك مقولة الإمام الشافعي الشهيرة: «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب». ولما قال بعض الإخوة للقرضاوي: كيف يحتمل قول الخطأ وأنا أعمل بالحديث النبوي، فهل يخطئ الوحي؟ فكان جواب الشيخ لهؤلاء أن الحديث وحي، ولكن فهمك للحديث ليس وحيًا، بل هو رأى قد يخالفك فيه غيرك. ولو فهم الجميع هذا المنطق واقتنعوا به وتمثلوه في علاقاتهم بين بعضهم البعض، وبينهم وبين غيرهم من أصحاب الرأى المغاير لتغير الكثير، ولاستطعنا أن نصون ما لا حصر له من طاقات تبدد في النزاعات والتخاصم الذي يصل أحياناً، والعياذ بالله، إلى التكفير.

ولعل تحدى «العولمة» هو تحدى العصر بلا منازع، ومن هنا يتوقف شيخنا أمامه

طويلاً، وبداية تتفق معه في ضرورة إزالة ذلك اللبس الذي يقع فيه البعض بين كل من (العالمية) و(العولمة)، ذلك أن الذي يتردد دائماً في الفكر الإسلامي أن الإسلام منذ لحظاته الأولى وهو يرفع مبدأ العالمية، وقد أكدت آيات قرآنية كثيرة على ذلك، فمن هذا على سبيل المثال قول المولى عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، ووجه التمايز هنا أن عالمية الإسلام تتمحور حول تكريم بنى آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، حيث استخلف الله الإنسان في الأرض وجعل كل ما فيها وما عليها وما في السموات مسخرًا لبنى البشر، وفقاً لمبدأ المساواة في الإنسانية، بحيث لا يكون لعربي فضل على أعجمي أو العكس إلا بالتقوى. وفي الوقت الذي تقرر فيه آيات القرآن المساواة بين الناس، تقرر كذلك قاعدة التباين والاختلاف والخصوصية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾

(الحجرات : ١٣) .

أما العولمة فهي تسعى إلى توحيد العالم تحت الهيمنة الأمريكية بصفة خاصة بحيث تتمحى الخصوصية الحضارية لكل أمة ، فلا علاقات على مستوى الندية، وإنما علاقات تقوم على أساس التابع والمتبوع، السيد والمسود... فما موقف شيخنا من العولمة ؟

هنا تتجلى نزعة الوسطية والاعتدال التى تحكم فكر واجتهادات القرضاوي، وهى نفس النزعة التى تحكم تلك المدرسة التى أصبحت معروفة فى الفكر الإسلامى المعاصر، والتى كان إمامها حقاً ، الراحل الشيخ محمد الغزالى ونلمح من رموزها الآن د. محمد سليم العوا، وفهمي هويدي ، ود. محمد عمار، وطارق البشرى ، وتعتبر مجلة المسلم المعاصر التى يصدرها بدأب وإخلاص نادرين الدكتور جمال الدين عطية منذ السبعينات حتى الآن ، أبرز تعبير عن هذا التيار .

لكن ، بين ماذا يتوسط هذا الاتجاه؟ الحق أننا نستطيع أن نميز فى الموقف من العولمة بين فئتين يمثلان اتجاهين رئيسيين.

أولهما ، فهم الذين أشار إليهم الرسول ﷺ بأنهم الذين يتبعون غيرهم،

بغير هدى ، إلى حيث يسرون، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخل الآخرون جحر ضب لدخلوه مستسلمين، ينظرون إلى العولمة باعتبارها راية العصر التى ينبغى الانضواء تحتها، وبالتالى التحدث بلغتها، والتثقف بثقافتها، والتأسيس بسياساتها .

ثاني الاتجاهين، هؤلاء الذين يعتبرونها شراً كاملاً، لا بد أن يفر منها كما يفر السليم من الأجر ، فيتصورون ضرورة وإمكان محاصمتها وإدارة الظاهر لها ، وأن السبيل إلى ذلك لا يكون إلا بالعزلة والهروب حتى لا يجرفهم هذا الطوفان .

أما الموقف الوسطي فهو يعبر عنه شيخنا بقوله : « الموقف اللائق بنا هو الموقف الوسط الذى يجتهد أن يستفيد من إيجابيات هذه العولمة وانفتاحها، ويأخذ خير ما فيها، وأن يجتنب سلبياتها المادية والمعنوية ، متحصنين بإيماننا ، معتزين بأنفسنا، عاملين بكل ما نستطيع لتطوير قدراتنا، وتحسين إمكاناتنا، حتى يكون يومنا خيراً من أمسنا، وغدنا خيراً من يومنا».

والقدرة على التوسط إنما تقوم على القدرة على الاختيار، وعادة من يستطيع الاختيار هو الذى يملك حرية الإرادة،

ومن يملك حرية الإرادة لا بد أن يكون قوياً ، والقوة العصرية لها مقوماتها وأركانها في الأخذ بأسباب العلم الحديث بغير قيود، وبذل أقصى الجهود وأمضائها في سبيل التنمية، وعماد هذا وذاك هو الإنسان الذي هو الوسيلة وهو غاية التنمية ، ولا يستطيع الإنسان أن يحقق هذا إلا إذا كان حراً بدوره لا تكبله قيود القهر والاستبداد، ولا تقعد به أئقال الجهل، يملأ قلبه الإيمان بالله رباً ومحمد ﷺ رسلاً .

وإذا كان عدد غير قليل يفهمون من الإسلامية أن تقف موقف التخاضع من الغرب، فإن شيخنا يؤكد رفضه لهذا المعنى ، بل وينادي في صراحة ودون مواربة أننا مطالبون بالانفتاح على الغرب، استناداً إلى جملة من الأسباب التي تجعل هذا حتمية حياة وضرورة عصر:

- فما دامت رسالة الإسلام عالمية، لم يختص بها شعب من الشعوب وحده، ولن تستطيع أمة احتكارها ، فإنها بهذه الصفة تعنى ضرورة التعامل مع شتى الأمم وعدم التفوق في قوقعة أمة بعينها، حتى ولو كانت هذه الأمة هي نفسها الأمة الإسلامية .

- أن الإسلام نفسه يعلمنا أن سنة الاختلاف والتباين - كما أشرنا - لا بد أن تقتزن مبدأ «التعارف»، وهذا ما أشارت إليه الآية ١٣ من سورة الحجرات التي ذكرناها من قبل .

- أن ضرورات العصر ومتغيراته لا تترك لأحد الآن خيار الاعتزال ، فسبل الاتصال جعلت من المعلومات سيلاً متدفقاً لا يستطيع أحد أن يقف أمامه ليصده، ويصبح السبيل الأنجع هو كيفية الاستفادة منه والمساهمة في تنميته.

لكن هذا لا ينبغي أن ينسينا أن هناك مسئوليات لا بد أن يلتزم الغرب بها، يحصرها شيخنا في هذه الكلمات:

١- أن يتخلى عن الأحقاد القديمة، فنحن أبناء اليوم لا بقايا الأمس .
٢- وأن يتخلى عن الأطماع الجديدة والرغبة في السيطرة على بلادنا ومقداراتنا، فعصر الاستعمار قد ولى، ويستحيل أن يعود .

٣- وأن يتبنى النظرة العالمية والإنسانية الحققة، ويتخلى عن نظرة الاستعلاء التي كانت عند الرومان الذين يرون كل من عداهم برابرة .

٤- وأن يتجرد من مخاوفه منا ، فلسنا وحوشاً ولا أغوالاً، ولا سيما ونحن - منذ

قرون - ضحايا ظلم الغرب .

٥- أن يدع لنا الحرية في أن ننظم حياتنا وفق عقيدتنا إذا أرادت ذلك شعوبنا، ولا يتدخل في شئوننا بفرض فلسفته علينا بالقوة أو بالحيلة ، فنحن أحرار في ديارنا .

٦- لا داعي للغرب أن يتخذ منا (عدوا) يعي مشاعر أمه ضدنا ، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، وأن يسمينا «الخطر الأخضر» بعد زوال «الخطر الأحمر» ، والتقارب مع «الخطر الأصفر» ! .

ويختتم القرضاوي كتابه المتميز بوقفة مع بعض الاتجاهات التي «فلسفت» المسيرة الحضارية البشرية، وأبرزها وأقدمها: التفسير الماركسي الذي أثبتت تجربة تاريخية استمرت أكثر من سبعين عاما خطأه ، ثم هذا التفسير الذي ظهر به فوكوياما بعد سقوط المنظومة الاشتراكية، مؤذناً بنهاية التاريخ، وكأن الرأسمالية الغربية هي الحطة النهائية لقطار التاريخ، ثم ثبت له ولغيره بعد وقت قصير أن لا أحد يستطيع أن يتنبأ بنهاية التاريخ، فقطاره سائر في طريقه إلى ما شاء الله .

أما صموئيل هنتنجتون، صاحب

«صدام الحضارات» ، فقد استحق وقفة أطول، وربما كان تعليق المفكر المغربي الكبير محمد عابد الجابري أقرب ما يكون إلى فكر شيخنا في التعليق على دعوى هنتنجتون عندما قال: إن المتأمل في مقولة المفكر الأمريكي يستطيع أن يدرك أن «لب الموضوع» هو «الإسلام» بالدرجة الأولى، و«الصين» بدرجة أخف بعض الشيء، ومع ذلك، فالمفكر الأمريكي لا يتوقف طويلاً أمام الصين بقدر ما توقف أمام الإسلام .

وإذا كان الإسلام اليوم هو الإسلام بالأمس ، فلماذا كان الغرب، وخاصة الولايات المتحدة ، تحالف معه بالأمس ضد الشيوعية ، ثم بدأت تنظر إليه اليوم باعتباره الخطر رقم (١) ؟

نعود مرة أخرى إلى ما بدأنا به ... إنها «المصلحة» أولاً وثانياً وثالثاً ... إلى ما شاء الله .. هي المعيار، وهي القبلة، وهي البوصلة التي تحكم حركة السفينة الغربية في بحار التاريخ. وإذا يقر شيخنا بهذا، لكنه يضيف إلى عنصر المصلحة أن الغرب تحكمه بالنسبة للإسلام والمسلمين عقد قديمة هي عقدة الحقد وعقدة الخوف ... الحقد الذي بدأ منذ أن بدأت رايات الإسلام ترفرف على

مناطق الإمبراطورية الرومانية، والحقده الذي أسال الدماء في الحروب الصليبية، والخوف من أن ينطلق المارد الإسلامي مرة أخرى ليكون صاحب إرادة حرة في مسيرة شعبه .

ولايسعنا في النهاية إلا أن نردد مع شيخنا الكبير أمنيته ، وأمنيتنا : «وكم نود من صميم أفئدتنا أن يتحرر الغرب من هذه العقد ويعامل المسلمين كما يعامل سائر الأمم والقوى في العالم، وإن كنا نؤمن أن الغرب ليس غطاً واحداً ،

ولا صنفاً واحداً ، ففي الغرب أناس وأفراد منصفون ، نرجو أن يتزايدوا يوماً بعد يوم» .

ونضيف إلى ما يقوله شيخنا للغرب بأنه إذا كان قد «ضبط» بعضنا منا أصحاب عنف وإرهاب ، فإن الكثرة الغالبة منا قد عانت منه أيضاً، ولا تؤمن به أسلوباً للتعامل مع الآخرين ؛ لأننا نتمثل جيداً تحية الإسلام التي لها مضمونها العميق، ألا وهي: السلام عليكم !

